◆ سِحر المشرق

من الأشعار التى تروى لعبد الرحمن الداخل قوله :

أيها الراكب المِيمِّمُ أرضِى ... إقْرَ من بعض السلام لبعضى
إن جسمى كما تراه بأرضٍ ... وفؤادى ومالِكِيهِ بأرضِ
قَدَّرَ البَيْنُ بيننا فافترقنا ... وطوى البينُ عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالبعاد علينا ... فعسى باقترابنا سوف يقضى

هذه الأبيات ذات دلالة مهمة ، لأنها تصور نوازع الأمير الباسل إلى مطارح عزته بالمشرق ، فجسمه بالأندلس وحده ، ولكن فؤاده بالمشرق ، وهذا الشعر أعظم من أن نقصره على هوى وجدانى يتصل بحبيبة معينة ، فالمعروف عن الداخل أنه قدير على كبح أهوائه ، مُعْرِضٌ عَمَّا يعوق مجده السياسى من ترف وأنس وغِيدٍ وشباب ، وقد وقعت من قلبه بعض الشابات الفواتن فى غفوة من غفوات إرادته فلم يمهلها غير أسبوع ، وأطلق سراحها ، معلنًا لها فى تأثر مرير ، أنه لا يستطيع أن يسجنها فى قصر من الذهب لا يغاديه صاحبة إلا على أبعاد تترامى حتى تكاد تنقطع .. أقول : إنَّ هذه الأبيات تصور ظمأه الحار إلى مجد الشرق ببغداد ، وولوعه أن يصبح ذات يوم فيجد نفسه حاكم المشرق لا غريبًا نائيًا يصارع الأهواء المتناحرة فى أقصى البلاد ، وكانت الأهوال العاصفة من حوله تذكى بقلبه لواعج هذا الحنين المتقد ، فيوسف الفهرى والصميل يجتمعان بادئ ذى

بدء على مناوءته ، فإذا تغلب عليهما بجهد جاهد نازعه القاسم بن يوسف ، ثم يتوالى الثائرون من بعده من أمثال عبد الغافر اليمنى ، وحيوة بن ملامس ، وهشام الفهرى ، والعلاء بن مغيث ، حتى تعظم الداهية بظهور الفاطمى البربرى .. محن متتالية متشابهة كليلات المحاق ، هذه من تلك ، والرجل الطموح لا يكاد يتنفس فى تؤدة ، فإذا فرغ فى بعض أوقاته للنهوض الداخلى ببلاده هاله أن يجد الفرق شاسعًا بين فوضى البربر وقبائل القيسية واليمنية وأخلاط الأسبانيين ممن يحكمهم فى دولته الناشئة ، وبين حضارة المشرق، وثقافة بغداد ، وسحر دمشق ، وإذا كان لابد مما ليس منه بد فليتخذ من الشرق مثالاً حضاريًّا يحتذيه ، ولتكن بغداد بحضارتها وعلمائها وأدبائها وشعرائها منار هدايته ، على ضوء حضارتها يبنى دولته ، وبثقافتها الحيّة يملأ عقول رعاياه ، وبأدبها الزاهر من شعر ونثر يسكر أرواحهم بما يلذ ويشوق .

كانت المشرق إِذَنْ أستاذ الأندلس ، تتطلع إليه فى إخلاص ورغبة ولا تحاول قبل عصر الناصر أن تقيس نفسها به ، بل كبرى مناها أن تحرز نفائس مؤلفاته وروائع آثاره ، وأن يَغُذَّ أبناؤها الرحيل إلى الارتشاف من حياضه والرى من موارده ، فإذا وفد عليهم وافد من أعلام الشرق تطلعت إليه العيون فى إطبار ، واقتعد مقعد الأستاذ عن فخر واعتداد .

ومعروف أن الكثرة الكاثرة من جنود الفتح الأول كانت من البربر ، والأقلية القليلة من العرب ، وهؤلاء وأولئك لا يتيسر لهم أن يقيموا ثقافة أدبية أو حضارة عمرانية ، لأن البرابرة بداة لم يتمكنوا من العربية ، وزملاءهم من العرب فى صراع طائفى بين قبائلهم تارة وبينهم وبين المغاربة تارة ثانية ، وبين الاثنين وبقايا القوط من غلاة الناقمين تارة ثالثة، وحالة كهذه لا تسمح برقى وازدهار ، حتى إذا جاء الداخل مهد الأسباب إلى تدفق عربى جديد ، وقد اضطرته السياسة أن يستعين بهم على البربر تارة ، وأن يستعين بالبربر عليهم فى أكثر المنازعات ، حتى إذا هدأ الجو بعض الشئ فى أواخر أيام الداخل بدأ الاهتمام بثقافة المشرق يأخذ مأخذه ، وتطلع التلاميذ المغتربون إلى أساتذة كبار ! على أن أسباب الاتصال بين المواطنين كانت ممهدة ميسرة ، فأرض الإسلام بلد واحد فى منطق

الرعايا والأفراد ، يرحل المسلم إذ ذاك ما يرحل فلا يسأله سائل ماذا يقصد ؟ وأين يريد ؟ ومن يرحل من الأندلس إلى المشرق يتزود بالزاد الدسم من الثقافة والعلم والأدب ويرجع إلى بلاده حاملاً نفائس المؤلفات وراويًا بدائع الأشعار ، ومسجلاً ضوابط اللغة والعلوم ، فيتبوأ مكانة الأستاذ ، ويعظم فى عيون مواطنيه عظمة تخصه بالهيئة والجلال ، وتمهد له مناصب الفتيا والقضاء إن تفقه ، والوزارة والكتابة إن تفقه وتأدب .. هذا مَنْ رَحَلَ إلى المشرق ، أمَّا من قَدِمَ من أعلامه فهو تحفة نادرة يتوافد الناس إلى رؤيتها ، ويقبلون على الاستفادة من غيرها ، وقد سجل المؤرخون كتبًا كثيرة تحمل أسماء من رحل وعاد ، كما تسجل مواقف من قدم فأفاد ، وهناك كتب أُخرى تجمع أسماء المؤلفات الوافدة من المشرق ، وهى تضم نفائس أعلامه فى كل مجال من مجالات الثقافة فقهًا ولغة ، ونحوًا وتصريفًا وتاريخًا وأدبًا ، دع ما عرف من فنون الجدل والفلسفة ، فقد ظلت الأندلس بمنأى عنه إلى أمد بعيد .

آتت الرحلات والمؤلفات ثمارها ، حتى جاء عهد الناصر وولده الحكم ، فكانا بالأندلس بمكان الرشيد وولده المأمون بالمشرق ، فإذا كان هارون الرشيد قد أحيا الحركة الأدبية ببغداد على عهده ، بما نفح به الشعراء من هِبَاتٍ جزيلة ، وبما شاهد من المناظرات العلمية بين الكسائى وأئمَّة اللغة والأدب فى أبهاء مجالسه ، ثم بما أنشأ من خزانة الحكمة ، حين ولى يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب الطبية القديمة ، وأخذ يجمعها من أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم ، ثم جاء ولده المأمون فسار فى الشوط إلى نهايته ، وشَابَهَ أباه فى تغذية الحركة الفكرية ، بحيث كانت مجالسه مدارس علماء ، وحلقات مفكرين ، ثم زاد فى نطاق بيت الحكمة حين راسل ملك الروم فى إنقاذ ما يختار من العلوم القديمة المدخرة لديه ، وبعث لذلك جماعة من أفذاذ التراجمة ، كابن البطريق ، وسلم ، والحجاج بن مطر ، حتى أصبحت بغداد وارثة الروم ثقافة وعلمًا ، كما تمثلت فارس والهند أدبًا وحكمة ، إذا كان الرشيد والمأمون قد خَطَوَا هذه الخطوات العلمية ببغداد ، فإنهما قد رسما الطريق للناصر وولده الحكم بالأندلس أن يقفوا أثريهما فى هذا المجال المديد .

لقد بدأ الناصر فاستقدم أبا على القالى صاحب الأمالى ، وساعده استقرار الأمن فى بلاده ، وازدهار الرخاء فى عصره ، وطموح الأمل فى نفسه ، أن يدفع البلاد إلى نهضة ثقافية شاملة ، وحضارة إنسانية زاهرة ، وكان أثره الغالى بعيدًا رائعًا ، حيث تَخَرَّجَ على يده أعلام ثقات فى الدراسات اللغوية ، كما استطاع أن ينصر المذهب القديم فى الشعر العربى حين روى آثار الجاهليين والإسلاميين ، وظل فى قرطبة ثمانية وعشرين عامًا ، ومهما كان من تأثيره اللغوى والأدبى فإنه لا يُقاس بأثره العظيم فى تنشئة الحكم نشأة أدبية ، جعلته – وهو ولى العهد – يبذل المستطاع فى جمع الكتب وتأليفها ، حتى إذا أصبح صاحب الأمر فى البلاد ، احدث هذا الدوى الرنان فى دنيا الثقافة الأندلسية . ويقول الذين تحدثوا عنه من الكاتبين : «إنه كان نَظَّارًا فى الكتب ، كثير التعليق عليها ، وقلَّما تجد كتابًا فى خزائنه دون أن يكتب عليه معلقًا» .

كما كان يرسل إلى أفذاذ العلماء فى الشرق والغرب يدعوهم إلى التأليف فى موضوعات يقترحها ، إذ يجد المكتبة العربية فى حاجة إليها ، ولم يكن أنانيًّا يشغل نفسه بعائلته وبنفسه ، فيطلب إلى المؤلفين تسجيل مآثر أجداده كما لمسنا عند كثير من الملوك والرؤساء ، ولكن سعة عقله قد ارتفعت به إلى أوج باهر ، فنظر إلى التأليف نظرات موضوعية ، إذ كان حريصًا على أن يجمع لديه التراث الأندلسى على أوسع نطاق – وهذا مما يُحمد له – فقد كلف أدباء كثيرين بالكتابة عن شعراء الأندلس وقضاتها وعلمائها وفقهائها ، ولعله كان يريد أن يحيى الثقة لدى الأندلسيين فى عصره حين يجدون آباءهم قد تركوا من التراث العلمى ما يمتع ويفيد ، فيواصلون البحث نشطين .. وممن فى حضرته من المؤلفين إسحاق بن سلمة ، وهو مؤرخ ضاعت أكثر آثاره ، وابن فرج ، مؤلف الحدائق بإرشاد منه ، وخالد بن سعيد ، ومحمد بن الحارث الخشنى ، والزبيدى ، وغيرهم من الأفذاذ . بل إن القارئ ليدهش حين يجد الحكم يضع للمؤلف فهرس كتابه ، ويرسم له خطة تأليفه ، فالزبيدى يقول فى مقدمة كتابه عن النحاة : «.. وأن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله – رضى الله عنه – لما اختصه الله به ، ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب العلوم ، أمر بتأليف كتاب يشمل على ذِكْرِ من سَلَفَ من النحويين واللغويين فى

صدر الإسلام ، ثم مَنْ تلاهم مِنْ بعد إلى زماننا هذا ، وأن أطلبقهم على بلادهم وزمانهم حسب مذاهبهم فى العلم ومراتبهم .. فألفتُ هذا الكتاب على الوجه الذى أمرنى به ، وأقمته على الشكل الذى حَدَّهُ ، وأمدنى - رضى الله عنه - فى ذلك بعنايته وعلمه ، وأوسعنى من روايته وحفظه ، إذ هو البحر الذى لا تعبر أواذيه ، ولا تدرك سواحله ، ولا ينزح غمره ، ولا تنضب مادته [1] » .

ولا تظن أن الزبيدى قال هذا القول تزلفًا للحَكَم دون أن يكون له نصيب من الواقع ، لأن سيرة الحكم تدلنا أنه كان أبعد الخلفاء عن الاهتمام بتزلف الوصوليين ورياء المغرضين ، ومسلكه مع فقهاء قرطبة يؤيد ذلك أبلغ التأييد ، فلو كان الرجل حريصًا على انتشار الصيت الكاذب ، لاتخذهم أبواقًا ينفخون فى الدعاية لسلطانه ، ولكنه عارَض جمودهم المتزمت ، ولم يحفل بما يتخرصون به لدى الناس ، وَهُمْ مَا هُمْ إذ ذاك ، نفوذ كلمة ، وامتداد صيت ، حتى أَلَّبُوا عليه الجموع وكادوا ينجحون فى استئصاله لولا حيلته البارعة ، مع أخذهم بالشدة حيث اتسع الخرق على الراقع .. وأنا أعجب لهذا الخليفة العالم البحَّاثة ، كيف استطاعت مَآزِقُ السياسة ومعاثر الدولة أن تهيئ له من الوقت ما ينفقه فى بناء الثقافة ، ووضع الفهارس لبعض المؤلفات ، وجمع الأدباء من شتى الأقطار ، وشراء الكتب من أبعد الممالك ، وحرصه على ذلك حرصًا مدهشًا ، حتى قال الكثيرون إن كتاب الأغانى بكافة أجزائه قد ظهر لَدى الحكَم قبل أن يظهر لدى المشرق ، لأنه كان يقف على أدوار تأليفه وهو عنه بمنأى فى قرطبة ، فعمل على إحضاره بعد أن أثقل جيب أبى الفرج ؟! وأكاد أشك فى هذا الأمر ، لأن مؤرخى أبى الفرج يذكرون أنه لم يكن له فى حياته من النباهة وبُعد الصيت ما كان له بعد وفاته ، وأن قيمة كتاب الأغانى لم تظهر للناس على وجهها الباهر إلا بعد أن فارق مؤلفه الحياة !

نعم ، إنه كان من جلساء الوزير المهلبى وصديقًا لشعراء عصره وكتابه ورواته ، ولكن ذلك كله أضعف من أن يجعل الحكَم فى قرطبة يترصد خطواته فى التأليف ، والأمر مع ذلك موضع شك لا أكثر ولا أقل .

---

(١) طبقات الزبيدى ٩ - ١٠ نقلاً عن كتاب الدكتور إحسان عباس ، عصر سيادة قرطبة ص ٥٠ .

لقد انتقل الأدب الأندلسى فى عهد الحكَم من الاعتراف بالتلمذة إلى المنافسة الحقيقية لأستاذه المشرقى ، ولم يأت التلميذ بجديد باهر يأخذ به أبصار أستاذه ، ولو قد فعل لدارت معركة صاخبة كالتى نشاهدها فى تواريخ الآداب بين الشباب والشيوخ ، أو بين القديم والجديد .

ولكن التلميذ أراد أن يسابق أستاذه فى الإتيان بمثل ما لديه فقط ، والنتيجة مضمونة على كل حال ، لأن الإنتاج إذا كان متحد النوع ، متقارب المذاق ، فالفضل لصاحب التجربة الطويلة ، والتاريخ المديد ، والإنتاج الحفيل . والحق أن الشعور النفسى لدى الحكام (من طبقة الناصر والحكم) ، والأدباء (من كُتَّاب وشعراء) ، بأن أدب العباسيين هو النمط المحتذَى فى القول ، قد أوصد أمامهم أبواب الابتكار ، فإذا أضفنا إلى ذلك تشابه التربة الأدبية من حيث النوع والبذرة والماء ، فإن تشابه الثمرة أمر محتوم لا محيص عنده ولا محيد ، وما وجد من ضروب التجديد مما سنفيض فى بعض بواعثه ، ومميزات لونه ، لم يكن مقصودًا معتمدًا ، ولكنه فى أهون أمره يمثل الاستثناء ولا يمثل القاعدة المطردة .. وأصحاب المقارنة بين الأدبين يفيضون فى بيان طرق الاحتذاء وألوانه ، ويرددون أسماء المقلدين ومنازع تقليدهم ، ولهم فى كل كتاب يرصد أمواج الفكر الأندلسى ثَبْتٌ حافل بالكتب والأسماء ، فهم مثلاً يقولون إن أبا الفضل جعفر بن شرف القيروانى ألف كتاب الزمان محاكاة لكتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه ابن المقفع ، وأن كتاب الحدائق الذى وضعه أحمد بن فرج الجيانى قد عارض به كتاب الزهرة لابن داود الأصفهانى ، وأن كتاب المظفرى الذى كتبه ابن الأفطس – صاحب (بطليوس) – قد عارض به عيون الأخبار لابن قتيبة ، ويقع فى نحو من عشرة أجزاء ، كما أن هناك أكثر من ديوان شعرى سُمّى بالحماسة مختارًا على طريقة أبى تمام ، أما كتاب الأنساب للسمعانى فقد عارضه الرشاطى المحدث الأندلسى بكتاب على غراره ... وتطول القائمة لو ذهبنا نستوعب ، فحسبنا أن نشير .. ولن نجد فى باب الموازنة بين شعراء المواطنين أوضح من تسمية كل شاعر أندلسى بقريع مشرقى ، فابن هانئ وابن دراج كلاهما يُوصَف بأنه متنبى الغرب ، وابن زيدون بُحتريه ، وابن خفاجة صنوبريه ، وابن طفيل عُرف بابن سينا ،

واشتهرت ولاَّدة بعلية بنت المهدى ، وقيل لابن عبد البر - صاحب الاستيعاب - حافظ المغرب ، كما قيل للخطيب البغدادى حافظ المشرق .

أذكر أن الأستاذ محمد رضا الشبيبى - عَلاَّمة العراق وشاعره - قد استقصى هذا الموضوع فى كتابه عن أدب المغاربة والأندلسيين ، قال الشبيبى :

«إن الأندلسيين قد استعاروا أسماء حواضر الشرق فأطلقوها على حواضر معروفة فى الأندلس والمغرب ، فشبهوا أشبيلية بحمص ، وغرناطة بدمشق ، وفاس ببغداد ، إلى غير ذلك ، وأحدثوا بلدة سُميت البصرة ، تشبيهًا لها بالعراق» .

ثم قال العلامة الشبيبى تعقيبًا على ذلك : «وهذا - مما يُذكر للمغاربة والأندلسيين، ويدل على فضلهم وتواضعهم - ضرب من الاعتراف بسبق المشارقة وتفوقهم فى العلم والتعليم والبحث والتأليف[1]» !

ويُخيل إلىَّ أن السبق الزمنى بأكثر من مائتى عام بين ازدهار الحضارة العربية بالمشرق، وازدهارها بالأندلس ، جعل هذا الاعتراف أمرًا طبيعيًّا لا غرابة فيه ، يتقدم به اللاحق للسابق عن طواعية ، ولكننا نتساءل : أكان هذا الاعتراف إجماعًا تنعقد عليه الكلمة ، ويشار إليه فى مجال التفضيل أم أن هناك من أدباء الأندلس على بصرهم الناقد مَنْ ضاقوا به وأنكروه ؟.. إن لدينا نصوصًا كثيرة لأفذاذ من الأندلس يحاولون بها أن يجعلوا الأندلس مع المشرق فى قرن واحد ، بل ساروا إلى أبعد من ذلك ، فجعلوا الأندلس راجحة والمشرق مرجوحًا ، وأظهر من جال فى مضمار التفاضل علاَّمة الأندلس ، وفقيهها الأكبر ، وباحثها النابغة ابن حزم ، فقد عقد رسالة فى فضل الأندلس ، وذكر رجالها ، أوردها المقرى فى الجزء الثانى من النفح[2] ، فاستعرض ما أُثر عن بلاده فى مضمار التأليف - من تاريخ ، وتفسير ، وحديث ، ولغة ، وأخبار ، وطب - استعراض من يرى السبق الظافر فى إقليمه ، ثم ختمها بقوله : «وبلدنا هذا على بُعده

(١) أدب المغاربة والأندلسيين ، ص ١٠- ١٣ للعلامة الشبيبى ط معهد الدراسات العربية بالقاهرة .
(٢) نفح الطيب - ج ٢ ط أولى .

من ينبوع العلم ، ونأيه من محلة العلماء ، فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إن طُلب مثلها بالأهواز ، وفارس ، وديار مضر ، وديار ربيعة ، واليمن ، والشام ، أعوز وجود ذلك على قرب المسافة فى هذه البلاد من العراق ، التى هى دار هجرة الفهم وذويه ، ومراد المعارف وأربابها ، ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جفونة بن الصمة الكلابى لم نُباهِ به إلا جريرًا أو الفرزدق ، لكونه فى عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جارٍ على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين ، وإذا سمّينا بقى بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن إسماعيل البخارى ، ومسلم بن الحجاج النيسابورى .. ثم أفاض ابن حزم فيما يشبه ذلك عن العلماء ، حتى قال عن الأدباء :

«ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلى لما تأخر عن شأو بشار ، وحبيب ، والمتنبى ، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب ، وأحمد بن عبد الملك بن مروان ، وأغلب بن شعيب ، ومحمد بن شخيص ، وأحمد بن فرج ، وعبد الملك بن سعيد البرادى ، وكل هؤلاء فحل يُهاب جانبه ، وحصان ممسوح الغرة» .

وأنا حين أقرأ هذه الأسماء – مع ثقتى بابن حزم وسداد حُكمه – أعلم أن جُلَّ شعر الأندلس قد ضاع لا محالة ، فكيف يكون هؤلاء فى منزلة بشار وأبى تمام والمتنبى ثم لا نعلم عنهم شيئًا إلا ما جمع من ديوان ابن دراج ؟! على أننا نكاد نجزم بأن الذى فُقِدَ – على كثرته – من طراز ما وُجِدَ على قِلَّتِه . فالحُكم على نوع الأدب وتحديده لا يختلف ضياعًا أو وجودًا ، فلئن غاب مائة ديوان ووُجِدَ عشرون – مثلاً – فالمعين الدافق سائل واحد فى الحاضر والغائب على السواء ، وهو ما لا يحيد كثيرًا بالحُكم على أكثر أدب الأندلس بالمحاكاة والترديد .. على أن الدكتور أحمد أمين فقد انتقد ابن حزم ومن لَفَّ لفه فى معركة الموازنة والتفضيل انتقادًا صائبًا ، فهو يقول فى كتابه ظهر الإسلام[1] :

«ومما لا شك فيه أن المنهج الذى سلكه ابن حزم والشقندى ليس منهجًا علميًّا ودقيقًا ، إنما هو كلام يقال ، فمن الصعب جدًّا الحُكْم بأن فردًا أزكى من فرد ، فكيف الحكم بأن أُمَّةً أذكى من أُمّة ، بل إنها أذكى من الأمم ، ومسلكهما – يقصد ابن حزم والشقندى

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٢ .

، بعد أن عرض كلامه ، وهو ممّن يدور فى فلك ابن حزم – الذى سلكاه أنهما يحكمان حكمًا كليًّا ثم يستدلان عليه بمسألة جزئية ، فيقولان إن أهل الأندلس عُرفوا بعلو الهمّة ، أو الاعتناء بالنظافة ، ويستدلون على ذلك بحادثة حدثت لرجل ، أو من رجل ، فكيف يصح هذا فى العقل ؟ إنما المنهج الصحيح هو – مثلاً – فى توزيع مقياس الذكاء على الناشئين ، وعمل ذلك فى أمّة أخرى ، والمقارنة بينهما ، ونحو ذلك، وبذا تطمئن النفس بعض الشىء عند النتيجة ، أما القول جزافًا بأن أُمَّةً أذكى ، والاستدلال بأن فلانًا ألَّفَ كتابًا قيّمًا ، فبرهان قاصر ، ومحال أن تكون أُمة كثيرة العدد كالأمة الأندلسية لا ينتج منها علماء أعلام وأدباء فطاحل[1] » .

أعتقد أن الذين تعاظمهم سطوة الأدب المشرقى من أعلام الأندلس يعبرون عن جانب نفسى من مشاعرهم ، فهم لدى أنفسهم أعلام فضلاء ، ولكن ما يلمسونه مع مواطنيهم الأقربين من تنافس وتصارع يؤديان فى بعض الأحيان إلى جحود وكفران ، قد جعلهم يضيقون أولاً بما يصادفونه من عقوق ، ثم يوازنون أنفسهم بما يتخيلونه عن أعلام المشرق فى سبحاتهم الحالمة ، فيظنون أنهم فى مشرقهم لا يكابدون قليلاً مما يكابدون ، فيشعرون بمرارة لاذعة ، لا تلبث أن تنقلب ثورة على أدب هؤلاء بدون ذنب جنوه ، فابن حزم مثلاً على جلالة علمه ، ورسوخ قدمه ، كان قطبًا لمعركة طاحنة تحتدم بها الآراء ، وله خصوم أقوياء لا يفتئون يمدون له أسباب الكيد والوقيعة حتى اعتُقل فى منزله، وأُحرقت كتبه ، وهو عند نفسه لا يقل مكانة عن الشافعى وأبى حنيفة ومالك ، ولكن قومه ضيعوه ، ثم أخذوا يفاخرون بالمشارقة ، فاندفع إلى قوله السالف تحت تأثير ظروف قاهرة لا طاقة له باحتمالها ، ويدل على ذلك عند ابن حزم وآحاد من أمثاله ، ما يترنمون به من الشعر تنفيسًا عن مشاعرهم المضطرمة ، كأن يقول ابن حزم مثلاً :

أنا الشمسُ فى جو العلوم منيرة ... ولكن عيبى أن مطلعى الغربُ
ولو أننى من جانب الشرق طالع ... لجد على ما ضاع من ذكرى النهب
ولى نحو أكناف العراق صبابة ... ولا غَرْوَ أن يستوحش الكلف الصبُّ

(١) المصدر السابق .

فـإن ينـزل الـرحمن رحلـى بيـنهم فحينئـذ يبـدو التأسـف والكـرب
فكـم قائـل أغفلتـه وهـو حاضـر وأطلـب عنـه مـا تجـىء بـه الكتـب
هنالـك يـدرى أن للبعـد قصـةً وأن كسـاد العـلم آفته القـربُ

وكأن يقول ابن دَرَّاج القسطلى :

فـإن غربـت أرض المغـارب مـوطنى وأنكرنـى فيهـا خلـيطٌ وجـيرانُ
فكـم رَحَّبَـتْ أرضُ العـراق بمقـدمى وأجزلـت البـشرى علـى خراسـان
وأن بـلادًا أخرجتـنى لعطـل وأن زمـانًا خـان عهـدى لَخَـوَّانُ

هذا ، والمثل القائل : «أحب شىء إلى الإنسان ما مُنِعَ » ، يعبر عن حقيقة نفسية ، لا ندرى كيف غابت عن كاتب حصيف كابن حزم ؟ فالأدب الأندلسى فى متناول أصحابه ، لا يحسون له وحشة أو اشتياقًا ، أما أدب المشارقة فبعيد ، يُسأل عنه فى لهفة وحنين ، ولو مَدَّ هؤلاء الناقمون أنظارهم إلى رجال المشرق لوجدوا ما لديهم هنا يماثل ما لدى القوم هناك ، فالمشارقة هم الآخرون يحنُّون إلى روائع الأندلس ، ويلتمسون السبيل إلى تنسم أخبارها ، واستظهار أشعارها ، ويتقبلون ذوى الرحلة منهم – فى الأغلب – تقبل الارتياح والانشراح ، وقد حرص حكام المشارقة على تدوين أخبار إخوانهم رغبة فى الوقوف عليها ، وسَيْرُورَتِهَا بين الناس ، فالفقيه الطرطوشى صَنَّفَ «سراج الملوك» فى مدينة الإسكندرية استجابة لرغبة حاكمها المأمون البطائحى ، وابن القطاع قد صنف «الدرة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة » ليرضى أدباء مصر ، والمحدث الأديب ابن دحية صنف كتابه الأدبى «المطرب فى أخبار شعراء المغرب » بناء على اقتراح الملك الكامل من بنى أيوب ، وهناك مطرب آخر فى الأدب غير مطرب ابن دحية سَبَقَ أن ألفه الكاتب الأندلسى اليسع بن حرم بمصر ، استجابة لرغبة صلاح الدين الأيوبى .. فإذا كان أمراء المشارقة ووزراؤها حراصًا على الأدب الأندلسى فهم يرونه أهلاً للتقدير والاحتفاء ، ولا يسمعون من أبناء بلادهم من ينكر عليهم ذلك ، هذا من ناحية ، أما تخيل مكانة العلماء فى المشرق على مستوى لا ترتقى إليه مكانة الأندلسيين فى بلادهم فسرابٌ يتخايل من بعيد دون أن تقع له العين على حقيقة ، فهل نسى ابن حزم أن البلاء هنا هو البلاء هناك ؟

وأن أبا حنيفة – على جلالة علمه – كاد يموت تحت العذاب ؟ وأن مالكًا ضُرِبَ بالسياط؟ وأن ابن حنبل قد امتُحِنَ بما تزلزل به الجبال ؟ وأن عشرات من أمثاله جابههم الزمان بما اعتاد أن يفجع به الكرام المرزَئِينَ مِنْ حَملة الهدى والإصلاح ؟

إن زامر الحى لا يطرب كما يطرب الغريب الذى يدوى صيته قبل أن تقع عليه العين، ولذلك صرخ ابن بَسَّام – فى افتتاح الذخيرة – مرددًا صرخة ابن حزم فى رسالة المفاضلة ، بل عَبَّرَ عن حرارة كاوية تلهب جوانحه حين هتف فى ألم لَذَّاع[1] :

«ومازال فى أفقنا هذا الأندلسى القصى إلى وقتنا هذا من فرسان الفنيْن ، وأئمة النوعين ، قوم هُمْ ما هُمْ ، طيب مكاسر ، وصفاء جواهر ، وعذوبة موارد ومصادر ، لعبوا بأطراف الكلام المشقق ، لعب الدجى بجفون المؤرَّق ، وحدوا بفنون السحر المنمق حُدّاء الأعشى ببنات المحلق ، فصبوا على قوالب النجوم ، غرائب المنثور والمنظوم ، وباهوا غرر الضحى والأصائل ، بعجائب الأشعار والرسائل ، نَثْرٌ لو رآه البديع لَنَسِيَ اسمه ، أو اجتلاه ابن هلال لولاَّه حُكمه . ونَظْمٌ لو سمعه كثَيِّرٌ ما نسبَ ولا مدَحَ ، أو تتبعه جرول ما عوى ولا نبح ، إلا أن أهل هذا الأفق أَبَوْا إلا متابعة أهل الشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نَعَقَ بتلك الآفاق غرابٌ ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذُباب ، لجثوا على هذا صنمًا ، وتلوا ذلك كتابًا محكمًا ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة ، مرمى القصية ، ومناخ الرذية ، لا يعمر بها جَنان ولا خلد ، ولا يصرف فيها لسان ولا يد ، فغاظنى منهم ذلك ، وأفقت مما هنالك ، وأخذت نفسى بجمع ما وجدتُ من حسنات دهرى ، وتتبع محاسن أهل بلدى وعصرى، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعودُ بدورهُ أهِلّةً، وتصبح بحاره ثمادًا[2] مضمحلة، مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه ، وقديمًا ضيعوا العلم وأهله ، ويارب محسن مات إحسانه قبله ، وليت شعرى ، من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق بالإحسان؟! » .

---

(١) الذخيرة لابن بسام – مقدمة المؤلف – ط أولى – عن كلية الآداب المصرية .

(٢) ثَمَدَ الماءُ : قَلَّ .

نفثة مصدور بلا شك ! ولكن تعليلها واضح أسفر عنه ما كتبناه آنفًا بصدد مفاضلة ابن حزم ، ولعل من أثرها الحسن أن حَدَتْ بابن بسام إلى تسطير الذخيرة ، فقدم لنا تراثًا خالدًا يُذكر له بالثناء ، على أنى أعجب لبعض الباحثين : لما يجعلون نتاج الأندلس يقف وحده أمام نتاج بغداد فى أخصب عهودها الزاهرة ، ولا يحاولون ذلك مع أدب كأدب مصر فى عهد الولاة ، وابن طولون ، والفواطم ، أو أدب الشام فى عهد بنى حمدان ، أو أدب ما وراء النهر من بلاد فارس وخراسان ؟! لماذا تقف الأندلس وحدها موقف المضاهاة والمقارنة ، وهى بعد إقليم لا يختلف عن غيره من الأقاليم ؟ ثم ألا يكون ذلك دليلاً على سُمُوِّ الأدب الأندلسى وازدهاره ، إذ استطاع أن يبلغ ما لم يبلغه أدب مصر أو الشام أو ما وراء النهر ، حيث لا يقف نتاج إقليم منها أمام أدب بغداد ؟.. قد يقال : إن قُرطبة كانت عاصمة خلافة أموية ، كما كانت بغداد عاصمة خلافة عباسية ، وهى بذلك ترفع نفسها إلى مستوى المنافسة ، ولها أن تتحمل تبعة النتائج كما تجىء ، ولكن القاهرة أيضًا كانت عاصمة خلافة فاطمية تنافس بغداد وتهددها فى أمنع معاقلها الحصينة ، وكان لها بيت الحكمة على ضفاف النيل منافسًا خزانة الرشيد والمأمون على ضفاف دجلة ، ومكتبة الناصر والحكم بالزهراء ، فَلِمَ قصر الأدب المصرى أن يطمح للمباهاة ؟ إن السبب واضح لا يحتاج إلى جهد ، فالأدب العربى فى مصر الفاطمية كان مقصورًا على الخاصة من ذوى المناصب والدواوين ، أما الأدب العربى فى الأندلس فقد كان نهبًا مشاعًا لِلْكَثْرَةِ الكاثرة من طبقات الشعب[1] ، وفيهم الزّرَّاعُ والصُّنَاع والتجار ، ومن يمتهن الحرف المتواضعة ، فتعمل يده ويفكر عقله ، ويترنم لسانه ، وحدث بعد ذلك عَمَّا يجيش به الأدب من لجج ترفدها جداول متكاثرة ، لا يهدأ بها تيار ، أو تقف دونها أسداد ... بذلك كله – وبغير ذلك أيضًا – استطاع نتاج هذا الإقليم المتأدب أن يزخر ويفيض .

يقول أساتذة الأدب المقارن : إن من العوامل الأولى لعالمية الأدب وازدهاره ، تأثيره فى كثير من الآداب الأخرى ، وشعور ذوى العقليات الناضجة بعدم كفاية أدبهم القومى

(١) الأدب الأندلسى ص ٧٦ للدكتور جودت الركابى .

فى التعبير عن رغبات النفس ، ومبتكرات الحياة ، فيتجهون إلى أدب آخر يجدون لديه دمًا جديدًا ينقلونه ، أو ينقلون منه إلى أدبهم المحتاج ، فَتَجِدَّ به روحٌ أخرى ، ويغمره نشاط يعيد إليه بعضًا من فناء النفس وشباب الروح ، ولذلك يقول (جوته) ، الشاعر الألمانى الطائر الصيت : «ينتهى كل أدب إلى الضيق بذات نفسه إذا لم تأتِ إليه نفائس الآداب الأخرى لتجدد الخَلَق[1] من ديباجته » .

وما يقال عن الآداب المختلفة فى دنيا الأدب المقارن ، يقال كذلك عن أدب الإقليم الخاص بين آداب الأقاليم الأخرى فى اللغة الواحدة والأدب الواحد ، فقد شعر ذَوُو الملكات العالية بالأندلس بحاجتهم الماسة إلى أدب المشرق ، وقَوَّى هذا الشعور ما لمسوه فعلاً لدى الأدب المشرقى من نفاذ وقوة وتأثير ، فعكفوا عليه عكوفَ مَنْ يراه غاية الأمل ، ومرتقى الإعجاز ، ولم يَجُلْ فى أذهانهم أن يتيامنوا كثيرًا عنه إلى غيره ، أو إلى نفوسهم الخالقة ، إذ يسبرون أغوارها ، ويكتشفون مجاهلها ، فتسعدهم بالجديد .. وكان النتاج المشرقى من الغزارة والتدفق والموالاة بحيث لم يترك بريقه مغازلة الأبصار ، وخطف القلوب .. وأخذت المؤلفات المشرقية تتتابع لتحتذى ، ومهما كان تأثير هذه المؤلفات ، فإن أحدها – وهو يتيمة الدهر للثعالبى – قد بلغ بتأثيره فى صياغة النثر واتجاه النقد وكتابة التاريخ ما لم يبلغه أثر سواه ... ونحن نستأذن القارئ أن نبين له ذلك بما نستطيع به أن نخدم قضية التأثر والتأثير .

★★★

(١) الخَلَق : البالى من الثياب والجِلْد ، وغيرها .